الشرق كما يراه الغرب

٢ - الموالد المصرية

للأستاذ أحمد أبو زيد

قلنا إن المولد في أصله احتفال ديني بعيد أحد الأولياء ... ولا تزال الموالد حتى الآن — على الرغم مما طرأ عليها من التغير وما داخلها من عناصر اللهو — تحتفظ بالكثير من الملامح الدينية التي تتمثل على الخصوص في شدة إقبال الناس على ضريح الولي صاحب الاحتفال للتبرك به والطواف حوله واتخاذ ذلك وسيلة للتزلف والتقرب إلى الله ... ومن الناس من ينتبذ من المسجد جانباً يخلو فيه لنفسه ، يرتل القرآن ، أو يتوجه بالدعاء إلى الله ؛ ومنهم من يشترك في حلقات الذكر التي تقام كل ليلة من ليالي المولد في المسجد ؛ ومنهم من يتخذ الإحسان وسيلته إلى الله . والموالد سوق رائجة للاحسان يدلي فيها كل محسن محب للخير بدلوه حسب قدرته وطاقته ؛ فأغنياء الحي الذي يقع فيه ضريح الولي ينحرون الذبائح ويولمون الولائم ويوزعون الطعام والملابس والصدقات على الفقراء والمعوزين — وما أكثرهم في مصر ! .. ومن هم دون ذلك قدرة وثراء من أوساط الناس يسلكون سبلا غريبة للاحسان ؛ فبعضهم يشتري قربة ماء ليسقي الناس ، أو يشتري (دورقا) من الترهندى أو العرقسوس ، أو (الدندرمة) يوزعها عليهم ، وهم يبتغون من ذلك رضا الولي ومرضاة الله .

ومن الطرق الغريبة التي يلجأ إليها الناس في مصر للاحتفال بالموالد أن الحلاقين — مثلا — يتبرعون بإجراء عملية الختان لأطفال الحي الفقراء بالمجان أو بأجر زهيد جداً لا يتجاوز بضعة قروش . ويعلق كل « حلاق » من هؤلاء لوحة كبيرة على واجهة حانوته كتب عليها (الطهارة للفقراء مجاناً) ، وإلى جانبها يعلق صورة تمثله وهو يختن أحد الأطفال . ويزين الحلاقون لهذه المناسبة حوانيتهم بالمصابيح الكهربائية الملونة والأعلام الزاهية لكي يجذبوا إليهم أنظار الناس . ويذهب بعض الحلاقين إلى أبعد من ذلك ، إذ يعدون لأنفسهم حوانيت متنقلة ينتقلون بها من مولد لآخر ، بل ومن بلدة لأخرى ، لكل من يتقدم من الفقراء .

ومن الظاهرات الشعبية ذات اللون الديني الخطابة الدينية في الشوارع . فكثيراً ما يقوم بعض المشايخ من رجال الدين ، أو حتى بعض المتحمسين من عامة الشعب فيخطبون الناس على قارعة الطريق ، يحثونهم على الفضيلة ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر ، وهم في ذلك يصدرون عن قوة إيمانهم وشدة غيرتهم على الدين . ومن هنا كانت خطبهم تأتي في أغلب الأحيان قوية حارة عنيفة صادرة عن القلب وتجد طريقها إلى قلوب السامعين

وهي بعد ذلك تحوي فيما إنسانية كالشعر الرفيع يتذوق كل قارىء منها على قدر استعداده . وحسب القصة فخرا أنها يسرت الممتنع من عزيز الفن للافهام جميعا ، وأنها جذبت لسماء الجمال قوما لم يستطع الشعر على قدمه ورسوخ قدمه رفعهم إليها ، فهل يكره العقاد ذلك أو أنه يحب كأجداده كهنة طيبة أن يبقى فنه سرا مغلقا إلا على أمثاله من العباقرة ! !

ولعله توجد أسباب أخرى تفسر لنا انتشار القصة هذا الانتشار الذي جعل لها السيادة المطلقة على جميع الفنون الجميلة ، ولعل أهم هذه الأسباب ما يعرف بروح العصر . لقد ساد الشعر في عصور الفطرة والأساطير ، أما هذا العصر ، عصر العلم والصناعة والحقائق ، فيحتاج حتما لفن جديد ، يوفق على قدر الطاقة بين شغف الانسان الحديث بالحقائق وحنانه القديم الى الخيال ، وقد وجد العصر بغيته في القصة ، فاذا تأخر الشعر عنها في مجال الانتشار فليس ذلك لأنه أرق من الزمن ولكن لأنه تنقصه بعض العناصر التي تجعله موائما للعصر ، فالقصة على هذا الرأي هي شعر الدنيا الحديثة . وسبب آخر لا يقل عن هذا في خطره هو مرونة القصة واتساعها لجميع الاغراض ، مما يجعلها أداة صالحة للتعبير عن الحياة الانسانية في أشمل معانيها . لذلك توجد قصة عاطفية ، وقصة شعرية ، وقصة تحليلية ، وقصة فلسفية ، وقصة علمية ، وقصة سياسية ، وقصة اجتماعية . ولعل الشمول في التعبير يكون مقياسا أصدق من المقياسين اللذين يقترحهما الأستاذ الكبير ، ودلالته واضحة في أن القصة أبرع فنون الأدب التي خلقها خيال الانسان المبدع في جميع العصور .

نجيب محفوظ

فى غير مشقة ولا عسر . ويخص ما كفرسون بالذكر شيخاً أعمى يدعى الحاج حسين له مقدرة خطابية فائقة وقدرة عظيمة على اجتذاب الناس إليه . ويذكر ما كفرسون أنه شاهده مرة فى مولد السلطان الحنفى يخطب الناس والمطر ينصب من فوقهم انصبابا ، والشيخ مع ذلك ماض فى خطابته لا يتريث ولا يتوقف ، والناس منصتون إليه لا يفكرون فى الانفضاض من حوله .

ومن هذه الظاهرات أيضا إقبال الناس على اقتناء الأحجبة والطلاسم والرقى ابتغاء التبرك ودفع الشر والأذى . والدراويش هم الذين يقومون بكتابة هذه الأحجبة لمن يطلبها من أفراد الناس . ويشهد ما كفرسون بأن الدراويش يقومون بذلك العمل رغبة منهم فى فعل الخير فحسب ؛ فهم لا يتخذون من غفلة الناس ومذاجتهم وسيلة لجمع المال ، إذ أن كثيرين منهم يرفضون أن يأخذوا أجراً على ما يكتبون ، والبعض الآخر لا يتناولون إلا أجراً قليلا تافها ؛ ومنهم من يقنع بكتابة عددمعين من الأحجبة لا يتعداه بأى حال ومهما اشتد عليه الإقبال .

ولكن كل هذه الظاهرات ، على جلال معناها الدينى — ليست هى الظاهرة المميزة للموالد ؛ إنما الظاهرة الأساسية التى تمتاز بها الموالد هى سلسلة الحفلات الدينية التى يقوم بها كل ليلة من ليالى المولد جماعة الصوفية والدراويش . وهذه الحفلات يشرف عليها أحد مشايخ الطرق ؛ ويكون فى الغالب من نسل الولى نفسه . وقد يكون أحد تلاميذه الروحيين ؛ فإن تعذر ذلك عهدت الحكومة بهذه المهمة إلى أحد كبار العلماء .

ونظام الدراويش نظام قديم من نظم الصوفية كان موجوداً فى أيام أبى بكر صهر الرسول (ص) ؛ فهو بعيد كل البعد عما يلحقه الناس إليه من ضروب الشعوذة وفنون الدجل . ونظام الدراويش نظام متماسك له تعاليم متوارثة ؛ لأن الدرويش لا يصبح درويشاً حتى يمر بمراحل معينة ؛ فهو يكون فى الأصل طالب ثم يرتقى إلى درجة أعلى فيصبح مريداً يتلقى العلم الروحى على يد مرشد يلقنه الأوراد والأذكار حتى يحصلها جميعاً فيسلمه (سنداً بسلسلة) والسند عند الصوفية بمثابة شهادة تشهد بأن السلسلة (وهى رمز التسلسل الروحى الذى يربط الدراويش بمؤسس الطريقة ثم بالنبى عليه الصلاة والسلام) وحدة لا تنقطع — ولكن مع أن نظام الدراويش يرجع إلى أيام الإسلام الأولى ، فإن تنظيمهم ذلك التنظيم الرائع الذى ظلت عليه طول هذه القرون ، يرجع الفضل فيه إلى سيدى عبد القادر الجيلانى (من رجال القرن السادس الهجرى) . ومن هنا كانت الطريقة القادرية هى الطريقة الأصلية ، ومنها تفرعت طريقتان رئيسيتان هما السعدية والرفاعية . ويشهر رجال الطريقة الأخيرة بوسيلتهم الغريبة فى التغلب على الآلام وقهرها ، إذ يمشون على النار ويلتهمون الجمر ويأكلون الزجاج ويبتلعون الحيوانات السامة وما إلى ذلك دون أن يصيبهم أدنى ضرر أو أذى .

فهذه الطرق الصوفية وغيرها (وفى مصر حوالى مائة طريقة) هى التى تحتفل فى الواقع بالموالد احتفالا دينياً له صبغته الخاصة ، وهى التى تضفى على الموالد ثوباً رائعاً مميزاً . ففى كل ليلة من ليالى المولد تتوجه بعض هذه الطرق إلى المسجد فتعقد حلقات الذكر والإنشاد حتى ينقضى شطر كبير من الليل ؛ ويستمر ذلك طيلة المدة المرخص بها للاحتفال — وهى أسبوع فى العادة — حتى تأتى الليلة الأخيرة — أو ليلة الخاتمة — وهى الليلة التى يفترض أنها ليلة ميلاد الولى ، فتتجمع الطرق الصوفية كلها فى إحدى الساحات أو الميادين ثم تنتظم على شكل (زفة) يتقدمها رجال البوليس وفرق الموسيقى ، وينتظم فيها (أولاد أبو الغيط) وهم يرقصون رقصاتهم الجميلة ، والدراويش بملابسهم الملونة الزاهية (وطراطيرهم) الخضراء ، كما يسير فيها أيضاً بعض الحواة والمشعوذين ... وتتقدم كل طريقة البيارق (جمع بيرق) التى تدل عليها ، وقد نقش عليها أسماء النبى (ص) والخلفاء الراشدين ، أو اسم الطريقة واسم مؤسسها والطرق الصغيرة المتفرعة عنها . وتسير الزفة — وقد توسطها الخليفة — متجهة نحو ضريح الولى فى ضجة كبيرة تختلط فيها أنغام الموسيقى بقرعات دفوف الصوفية وأصوات (الكاسات) و(النقارات) بنغمات الأرغول و (الزمارة) وغير ذلك من الآلات الموسيقية التى يستخدمها الصوفية والدراويش . ويتوقف موكب الزفة من آن لآخر فى الطريق كى يتسنى للناس فى المنازل التفرج والمشاهدة ؛ وبعد لأى تصل (الزفة) إلى المسجد ... وهكذا يختتم المولد وتنتهى لياليه ، ويصبح الصباح فإذا الزينات ومعالم الأفراح قد زالت وعاد كل شىء إلى ما كان عليه .

غير أن الناس قد يستمرون فى احتفالاتهم ومباهجهم أسبوعا